

مقامات ابن حمادوش الجزائري قراءة في الأنساق الثقافية

Maqamat Ibn Hamdush Al-Jazairi, a reading of cultural patterns

رشيدة كلاع *

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ١

rachidaklaa@yahoo.fr

(البلد)

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠٥/٢١

القبول: ٢٠٢٥/٠٥/٢٨

النشر: ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

ملخص: ارتبط الأدب الجزائري بالأجناس الأدبية التراثية، فكان هذا الأدب المعين الذي نهلت منه نصوصه المختلفة. عُدَّت المقامة واحدة من الأجناس الأدبية التي ظهر فيها هذا التأثير؛ حيث حاكت نظيرتها المشرقية في خصائصها العامة لتختلف عنها في الموضوع وطريقة الطرح، إذ حاول الكتاب الجزائريون إعطاء خصوصية لأدبهم. تعددت نماذج المقامات في الأدب الجزائري حجما وموضوعا، فقد ارتبطت بالأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية للفترة التي كتبت فيها، وحملت أبعادا مختلفة، تناسب فن القص في المقامة. كانت تلك الكتابات صورة عن الأوضاع في الجزائر. لما كان النقد الثقافي واحدا من أهم الظواهر الأدبية التي جاءت بعد الحداثة، فقد ارتكز بحثه على تفسير السياقات الثقافية في النصوص الأدبية بمختلف أبعادها.

تسعى هذه الدراسة إلى التعريف بفن المقامة الجزائرية، عند واحد من أعلامها وهو ابن حمادوش الجزائري، من خلال بحث موسوم: "مقامات ابن حمادوش الجزائري قراءة في الأنساق الثقافية". يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المختلفة التي حوّاها النص، الظاهرة منها والمضمرة.

الكلمات المفتاحية: مقامة؛ تراث أدبي؛ ابن حمادوش الجزائري؛ نسق ثقافي؛ أدب جزائري.

Abstract : Maqama is considered one of the literary genres in which this influence appeared. It imitated its Eastern counterpart in its general characteristics, but differed from it in the topic and method of presentation.

The models of Maqamat in Algerian literature varied in size and subject matter. They were linked to the political, social and cultural events of the period in which they were written, and carried different dimensions, appropriate to the art of Maqamat storytelling

Since cultural its research was based on interpreting the cultural contexts in literary texts in their various dimensions.

This study seeks to introduce the art of the Algerian Maqamat, according to one of its prominent figures, Ibn Hamadouche Al-Jazairi, through research titled: "The Maqamats of Ibn Hammadush Al-Jazairi: A Reading in Cultural Patterns."

This research aims to reveal the different cultural patterns contained in the text, both apparent and implicit.

KeyWords :residence; literary heritage; Ibn Hamdush Al-Jazairi; cultural system; Algerian literature.

*المؤلف المرسل: رشيدة كلاع rachidaklaa@yahoo.fr

I- مقدمة:

حظيت المقامة بوصفها جنسًا أدبيًا مميزًا بمكانة بارزة في التراث العربي، فأفردت لها عديد الدراسات؛ لما تحمله من ثراء لغوي، وتنوّع أسلوب، وانفتاح على مختلف الأنساق الثقافية والاجتماعية. ظهر هذا الفن في النثر الجزائري كغيره من الأجناس الأدبية الأخرى، إذ جادت قرائح الأدباء الجزائريين بعديد المقامات، التي كتبت في فترات مختلفة من طرف أسماء كبيرة، تباينت مضامينها، وأساليبها، بيد أنها تكاد تجمع على رصد واقع المجتمع الجزائري، وما شهدته من أوضاع في شتى المجالات. لعل من بين التجارب اللاقطة في هذا السياق مقامات ابن حمادوش الجزائري، التي تشكّل مرآة عاكسة لروح العصر في الجزائر خلال الفترة العثمانية، بما فيها من تحولات ثقافية ودينية واجتماعية.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل مقامات ابن حمادوش في ضوء مقارنة الأنساق الثقافية، من خلال بحث موسوم: "مقامات ابن حمادوش الجزائري قراءة في الأنساق الثقافية" سعيًا للكشف عن تماثلات البنية الثقافية العميقة في خطابه المقامي. والآليات الرمزية والتعبيرية التي وظفها لتمرير خطابه الثقافي. قبل والولوج إلى دراسة مقامات ابن حمادوش، والوقوف عند بعض المصطلحات ذات الصلة الوطيدة بهذا البحث، وجب أولاً التعريف بصاحب المقامات.

II- التعريف بالكاتب:

ولد أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري (١١٠٧م- ١٦٩٥) في مدينة الجزائر، أشعري العقيدة، مالكي المذهب، الشريف نسبا. توفي بعد قرابة تسعين سنة في تاريخ ومكان مجهولين... كانت أسرته فيما يبدو تتمتع بالدباغة. فقد ابن حمادوش والده في سن صغير ليكفله عمه، الذي زوجه ابنته وأسكنه في بيته.

تلقى ابن حمادوش مبادئ علوم الدين، فقد ذكر في مقاماته أنّه تتلمذ على يد العديد من العلماء منهم: الشيخ محمد بن ميمون. كما عاصر العديد من الأحداث والحروب في بلاده. اطلع على كتب الفقه والحديث والأدب والتاريخ، بيد أنّه أبدى ميلا إلى العلوم الرياضية والطبية. هو صيدلي وطبيب وفلكي، ألّف في هذه العلوم العديد من الكتب، مبديا اهتماما كبيرا بكتب التراث. منصرفا بذلك إلى العلم على حساب التجارة، ما جعله يعاني ظروف مالية صعبة رفقة عائلته (الجزائري، ١٩٨٣، صفحة ٠٩).

III- مفهوم المقامة:

تحيلنا المعاجم اللغوية إلى أنّ المقامة هي «المجلس والجماعة من الناس» (منظور، د ت، صفحة ٤٩٨). يعرفها الزمخشري بقوله: «المقام أو المقامة، كالمكان أو المكانة: موضع القيام، فاتسع فيهما حتى بقوله استعمالا استعمال المكان أو المجلس» (الزمخشري، ١٩٩٨٢، صفحة ١٦)، بيد أن هذا المجلس سرعان ما ارتبط مع الزمن بمجالس الذكر، التي يجتمع فيها الناس للاستماع إلى النصيح والإرشاد الديني. أسهم تطور الحياة في العصر العباسي، وفي سياقات متشابكة ومختلفة في انتقال هذا المصطلح للدلالة على القص الظريف الذي يحتوي على عبر ومواعظ، توسله الشطار والمتطفلين للتحايل على الناس والكسب السريع؛ لما طبع لغته من تنميق وسجع (خان، ١٩٤٣، صفحة ١٥).

أما من الناحية الاصطلاحية وفي ظل الصعوبة التحنيسية، ظل هذا المصطلح لفترة طويلة غير مضبوط. صنفه فريق من الدارسين ضمن فن القصة، إذ رأوا أنّها « قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو ملحّة أو نادرة، كان الأدباء يتبارون في كتابتها، إظهارا لما يمتازون به من براعة لغوية وأدبية» (المهندس، ١٩٨٤، صفحة ٣٧٩)، في حين رأى فريق آخر ضرورة النظر إليه بوصفه «جنسا أدبيا قائما بذاته له خصائصه الفنية الخاصة به» (حسن، ١٩٧٦، صفحة ٢٨٣). رغم قرب المقامة من القصة، فإنّها تبقى جنسا أدبيا سرديا له تميزه على مستوى الطرح وطريقة الكتابة. ف «المقامة حديث قصير من شطحات الخيال، أو دوامة الواقع اليومي، في أسلوب مصنوع مسجع، تدور حول بطل أفاق أديب شحاذ، يُحدّث عنه وينشر طويته راوية جوالّة، قد يلبس جبة البطل أحيانا » (الكك، ١٩٦١، صفحة ٤٨). لا تقتصر المقامة على كونها مجرد سرد لقصص، بل هي أداة حية للتعبير عن القضايا الثقافية والاجتماعية.

تعد المقامة من «الفنون التعليمية التي وجدت لها وسيلة في اللغة العربية، تخلّقت من أمشاج عربية لغوية وأدبية وقيم إسلامية وإنسانية عامة» (العبد، ١٩٨٩، صفحة ٢٥). تتحكم الغاية التعليمية في الأحداث وتوجهها المسار المطلوب، بأسلوب عرض أنيق ومميز.

IV- مفهوم الثقافة:

لعل كلمة ثقافة من أصعب المصطلحات في الضبط المفاهيمي، استعملت لزمن طويل بمعنى «الوحدة الكلية المعقدة التي تشتمل المعرفة والإيمان، والفن والأخلاق والقانون والعادات، بالإضافة إلى قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع» (غيرتر، ٢٠٠٩، صفحة ٨). انبثق هذا الفهم من ارتباط الثقافة بأساليب العيش، ومختلف الممارسات اليومية للفرد، وما يعترض سبيله من عوائق تفرضها البيئة المحيطة بأعرافها الاجتماعية.

يتبنى المجتمع هذه الأنماط الثقافية التركيبية، فتتغلغل فيه ضمن جملة من الممارسات الفكرية، التي تساعد الفرد على التفاعل مع محيطه الاجتماعي. من ثم عدّت «نسق المعرفة الذي يستخدمه الناس لتفسير الأفعال والأشياء والأحداث» (إسماعيل، ١٩٨٠، صفحة ٩٤)، دون أن يوهما ذلك بأنها «بمجرد نشاط متعة أو إمضاء لوقت فراغ، بل تهتم بتكوين أفراد ناضجين ذوي إحساس بالحياة حقيقي ومتوازن» (ديورنغ، ٢٠١٥، صفحة ١٠). ما يجعل الثقافة موضوعاً للدراسة وأداة للنقد في الحين ذاته.

V- النقد الثقافي (*Cultural Criticism*):

يأتي النقد الثقافي ليضع كل ما هو ثقافي في ميزان النقد، بحثاً عن فهم وتفسير لمختلف السلوكات والفنون، المصرح بها وغير المصرح. من ثم كان هذا النقد «نشاطاً وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته... بمعنى أن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية والثقافة الشعبية، والحياة اليومية، وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة» (أيزنبرجر، ٢٠٠٣، صفحة ٣٠، ٣١)، في حين يراه الغدامي «فرعاً من فروع النقد النصوسي العام... معنيّ بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغته، ما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي... همّة كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/الجمالي» (الغدامي، ٢٠٠٥، صفحة ٨٣، ٨٤). فما تخفيه اللغة، والخطابات المسكوت عنها هو جوهر عمل الدراسات الثقافية بجوانبها النقدية.

بمعنى آخر هو «بحث في أنساقها المضمرّة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة... نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية، والاجتماعية والأخلاقية، والإنسانية والقيم الحضارية، بل حتى الأنساق الدينية والسياسية» (خليل، ٢٠١٢، صفحة ٠٧). يحيلنا هذا الكلام إلى كيفية تطبيق هذه الدراسة، ومن ثم البحث في ما يطلق عليه النسق الثقافي الذي هو «مواضعة اجتماعية دينية أخلاقية، إستراتيجية... تفرضها في لحظة معينة من تطورها الوضعية الاجتماعية، والتي يقبلها ضمناً المؤلف وجمهوره» (كليطو، ٢٠٠١، صفحة ٠٨). تتحكم في بناء النص جوانب مختلفة منها: ما هو خفي مرتبط بالأديب وميوله وأفكاره وتكوينه النفسي. وأخرى مرتبطة بإمكانات الأديب وقدراته في التأليف والكتابة؛ أي بطريقة تشكيل وبناء هذا النص.

«النقد الثقافي هو منهج فكري يهتم بدراسة وتحليل الثقافة من منظور اجتماعي وفلسفي، ويعتمد على تحليل كيفية تأثير الأنساق الثقافية على بنية المجتمع. يسعى النقد الثقافي إلى كشف العلاقات الخفية بين الثقافة والسلطة، ويُستخدم لفهم كيفية تشكيل الثقافة للوعي الجماعي» (Eagleton, ١٩٨٣, p. ١٥٠). تظل كثير من الأنساق مستعصية على الفهم؛ لأن أصحابها يابون الإفصاح عنها بشكل إرادي أو غير إرادي، ما جعل الناقد يلجأ إلى التأويل وسيلة لفك شفرات النص، وفتح مغاليقه.

VI- النسق الثقافي (*Cultural System*): يُعرف بأنه مجموعة من القيم والمعتقدات والممارسات التي

تحدد سلوك الأفراد في المجتمع، وهو يشمل جميع العناصر الثقافية مثل اللغة، الدين، العادات، الفن، والمعتقدات التي

تنتقل من جيل إلى جيل. يشير النسق الثقافي إلى البنية التي تنظم هذه العناصر بطريقة تساهم في الحفاظ على الهوية الثقافية وتوجيه العلاقات الاجتماعي. (Clifford, ١٩٧٣, p. ٢٣)

يمكن لهذه المفاهيم النظرية أن تساعد في تقديم فهم وتحليل أعمق للأنساق الثقافية، من خلال الوقوف على مدى تأثيرها على مختلف الجوانب الحياتية داخل المجتمع.

سعت المقامة، هذا الفن السردى المختلف إلى وضع النسيج المجتمعي تحت مجهر البحث، لمعرفة مخزونه فكري، والمعطيات التي تعكس تجدر أصوله، وما تعج به ثقافته من أنساق. لما كان المجتمع مشكلا من أنماط ثقافية متنوعة، فإن تلك الأنماط تتجسد من خلال السلوك اليومي للفرد، وفي ممارساته الفكرية، بشكل يتيح له التعامل مع محيطه.

تبحث هذه الدراسة في أهم الأنساق الثقافية المتغلغلة في متن مقامات ابن حمدوش، سواء الظاهرة منها أو المضمر، سعيا للكشف عما حُمِّلَ به من رموز وإيحاءات تعبر عن مقاصد الكاتب.

يتعلق الأمر بثلاث مقامات، كتبها ابن حمدوش بالمغرب. تحدث في الأولى عن سبب زيارته للمغرب، ووصف حاله عند خروجه من تطوان قاصدا مكناس، ومعاناته مع اثنين من مرافقيه من أخطار الطريق، وما شاهده من أمور غريبة. يقول: «الحمد لله طحى بي ضيق الأسباب وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدة الإياس إلى بلاد الملك مكناس. أخوض الغمار لأجتنى الثمار، واقتحم الأخطار لكي أدرك الأوطار. وكنت لقفت من أفواه العلماء ووصايا الحكماء، أن الخطر غرور، وأن المسافر مبرور. فشددت منطقتي، لكي أدفع أزميتي. ورافقت اثنين من التجار كأخما من الأبرار... فخرجنا من تيطوان إلى السفر... فبتنا في سيدي علي العسر، فخرج إلينا أقبح العشرة كأنه مغري، ومنه زرنا السيدة ميمونة تآكناوت» (حمدوش، صفحة ٧١، ٧٢).

أطلق على الثانية اسم المقامة الهركلية، ضمنها حديثا عن مبيته بأحد فنادق فاس، وما أرق منامه في تلك الليلة قائلا: «الحمد لله، حدى بي حادي الرحلة، إلى أن دخلت بعض أسفاري هركلة. فنزلت بها في خان كأنه من أبيات النيران، أو كنائس الزهبان. بل لاشك أنه من أبيات العصيان. فلذلك لا يسر به الناظر، ولا ينشرح له الخاطر. فاختصت منه بحجرة... حتى مَدَّ الليل جناحه، وأوقد السماء مصباحه. وهدأت الأصوات، وصرنا كالأموات. وتوغلت في حبال النوم... فلم يوقظن إلا جلبة الأصوات، وتداعي القينات، والتدافع بمنع وهات. وإذا جاري بيت بيت، يُحاسب قينة كيت وكيت. وهي تقول له: فعلت كذا كذا فعله، وتدفع أجر فعله. فو الذي سهل علي السَّفاح، ونصبتني لكل من أراد التَّكاح، لا برحت إلى الصباح، على وجه وقاح. وتدفع المهر بلا سماح. فقلت: بُعدا لهذا الجار. ولا شك أنه بئس القرار. ولبئس الخان كأنه حان... ثم رجعت إلى هجعتي، ولم أدر من ذاك المجاور لبيتي» (حمدوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، صفحة ٧٨، ٧٩).

حملت المقامة الثالثة؛ المقامة الحالية أبعادا وجودية نفسية؛ تحدث فيها عن الدنيا والحياة والموت، كما ذكر تعرضه لحسارة تجارية كبيرة. تضمنت المقامة أيضا حديثا عن حب كبير سكن قلبه، لم يحصد من وراءه إلا التعب

والمعاناة، قائلا: «الحمد لله محوّل الأحوال ومرخي البال، ومقلب الأمور في الدهور... لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خفّ الريش. وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الأخوان وقلت الأخدان، وغلب الزّمان، فارتفعت الأفران، وصعبت التجارة، وسهلت الخسارة، قرنت بجارة غرة، عيشتها مرة، البذرة عندها ذرة، وميرة الحجيح عندها بعرة، لا يشبعها الجليل، ولا تعباً بالقليل. الهوموم عندها همّ. والغوموم عندها غمّ. حوائجها من الجنون، وآمالها ظنون ورغبتها فيما لا يكون، الدّهر كله ساخطة، ومطالبها شائطة... لا تجني إلا ثمرة الخلاف، ولا تركز إلا لعدم الإسعاف. كأنّ ما أحبه عقر عيسها، وما أهواه غص عيشها. غدتها أمها لبان القروء، فشبت لا تألف المقصود، نطفة الكلاب في أرحام الثعالب. غليظة الجناح، ليس لها في الدّهر صاحب... بيد أنّها تسر الناظرين، وتصبي السامعين... فلذا اخترتها أما لأولادي» (حمدوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، صفحة ١٦٤، ١٦٥).

سجل ابن حمدوش من خلال هذه المقامات مشاهداته وما مرّ به من أحداث أثناء رحلته إلى المغرب. جاءت مقاماته لتعكس واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني، وتبرز التفاعلات الاجتماعية، الدينية، واللغوية التي كانت سائدة آنذاك.

استطاع ابن حمدوش من خلال مقاماته أن يقدم لنا ملامح للآخر، عبر تركيزه على مختلف العلاقات التي تربطه به. شكلت تلك المشاهدات التي نقلها ابن حمدوش في زيارته لتطوان، وفاس ومكناس ملمحا ثقافيا، عكف من خلاله على وصف أحوال الإنسان في تلك الأماكن، وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من منظور الكاتب، الذي ما فتئ يقارنها بأحواله/الأنا في جانبها السلبي والإيجابي. تلك الصورة التي «لا بد أن تنشأ عن وعي مهما كان صغيرا بالأنا مقابل الآخر، وهي تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين (أي المكان الذي نشأت فيه الصورة أي بلد الناظر، والمكان الذي تقدمه الصورة؛ أي بلد المنظور إليه)» (حمود، ٢٠١٠، صفحة ١٠). إذا كانت هذه المقامات هي حصيلة رحلة الكاتب إلى المغرب، وما شاهده من أحداث، واطلع عليه من ثقافة هذا البلد، فإنّها تعبر لا تنفك تعبر عن فكر صاحبها، ووعيه ونظرتة للأحداث.

VII - الأنساق الثقافية في المقامات:

تعدّ مقامات ابن حمدوش الجزائري نموذجًا أدبيًا غنيًا بالأنساق الثقافية التي تعكس واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني؛ حيث تعمل هذه الدراسة على تحليل هذه المقامات، واستخلاص ما حوته من أنساق ظاهرة ومضمرة، تسهم في تشكيل الهوية الثقافية والاجتماعية للجزائر في تلك الحقبة. يكشف البحث في مقامات ابن حمدوش عن تداخل جملة من الأنساق الثقافية، تعدّ أرضية خصبة لفهم ما كان يعيشه المجتمع الجزائري في ذلك الوقت. يمكن تحليل تلك الأنساق من خلال:

١- النسق الاجتماعي: كشفت مقامات ابن حمادوش عن واقع اجتماعي، يطبعه الصراع الطبقي في الجزائر، والنتائج عن تضارب مصالح الطبقات الاجتماعية (الأعيان، الفقراء، التجار، الحكام)؛ حيث عكف عبر طابع قصصي على عرض المشاكل التي تواجه هذه الطبقات، من خلال شخصيات هذا العمل.

ضمّن مقاماته حديثاً عن تدهور الأحوال الاقتصادية للناس، وقلة البيع والشراء، بسبب تزامن وجوده مع اندلاع الثورة هناك. ذكر ابن حمادوش أنه خرج يوماً وهو بالمغرب فعاد حزينا «لقلّة ذات يدي لأنّ كلّما عندي سلعة كاسدة، لا يمكن أن يأخذ منها خبزة... وقلة ما يباع وانشغال الناس بشؤونهم» (حمدوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، صفحة ١٠٨). تسبب عدم الاستقرار، والخوف من تفاقم الأمور في تردّي أوضاع الناس بالمغرب. بيد أن حال بلاده لم يكن بالأحسن، فقد عرفت في العهد العثماني مجموعة من الجوائح؛ الطاعون، الزلازل، الجراد... (الله، ٢٠٠٧، صفحة ٢٦٧)، من ثم كان تأثير هذه الأوضاع والجوائح سلباً سواء في الجزائر أو في غيرها من البلدان.

لا يخلو النصّ الأدبي من مخزون قيمى، يعبر عن أنساق اجتماعية متعددة تتحكم في تصرفات أفراد المجتمع وعلاقتهم ببعضهم وبالأخر. لذلك فإنّ «المضمون الاجتماعي للعمل الأدبي لا يستمد في الحقيقة من واقع الحياة في مجتمع، بل من موقف الأديب الفكري من الحياة في هذا المجتمع، فالمضمون في ذاته قيمة تتولّد عن مواقف الأديب الفكرية من القيم الأخرى السائدة في المجتمع. لذلك يكون العمل الأدبي ذا مضمون اجتماعي إذ أضاف إلى مجموعة من القيم الحاصلة قيمة جديدة. قد تُلغىها أو تعدّل منها. مما يساعد في تغيير المجتمع وتشكيله» (الحسيني، ١٩٩٩، صفحة ٦١). إن دور الكاتب لا يقتصر على وصف أحداث حاصلة، بل إنّّه يعبر عن فكر وثقافة تتحكمان في رؤيته لتلك الأنساق، التي ما فتئت تُلقى بظلالها على ثقافة المجتمع، وتسهم في نضجه وتطوره، عبر استحداث قيم تلغي قيماً أخرى أو تجددّها. فالدور التعليمي للمقامة يتخطى حدود وصف الأحداث، والتعمّق في التفاصيل.

سعى ابن حمادوش بذكاء وحكمة، وبروحه الخفيفة إلى تقديم نقد ساخر، عرى من خلاله واقعا اجتماعيا مريراً. تجلّت صورته في الفقر المدقع، والفشل السياسي. وما نتج عن الحروب من أمراض وتشرد، أفرز أشكالا للجرمة والتعدي على الآخر وعلى ممتلكاته. في ظل كل هذا ولد صراع طبقي، وتصادم للمصالح حمّلت من خلاله كل طبقة فشلها ومعاناتها للآخر.

وصف ابن حمادوش حال الفقراء والمعدمين في المجتمع الجزائري قائلاً: «وإذا نظرت إلى حال الفقراء، رأيتهم كالأشباح، لا مأوى لهم ولا قوت، ينتقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن لقمة عيشهم، في حين أن الأغنياء يرفلون في نعيمهم، لا يشعرون بمعاناة الآخرين» (حمدوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، صفحة ٤٥). أفرز هذا الوضع المتتردي صراعاً اجتماعياً من نوع آخر، هو صراع قيمى. نسق متمسك بقيم مجتمعه الأصلية، التي نشأ عليها، والنابعة من دينه الإسلامى وتعاليمه. ضد قيم تنازعها، وترغب إزاحتها عن عرش الحضور الطاغى باسم الحداثة، وما تمليه تعاليم الآخر الغالب بثقافته وزحفه الغامر.

عبّرت العادات والطقوس الغريبة في بعض صورها عن جهل الناس. من ذلك ما وصف به ابن حمادوش عادات بلاد فاس قائلا: «من أقبح ما في المغرب كلّها حماماتهم، ويبدو عوراتهم فيها، ومنها ومنها أنّ عاداتهم يأكلون في يوم العنصرة هشيم أذنان الضأن بالقرفة والكسكس، وهذا أكل غالب أهل فاس، وأما البراني فلا أدري» (حمادوش، لسان المقال، صفحة ٩٤)، فقد بدت هذه العادات غريبة بالنسبة إليه لأنّه لم يشاهدها من قبل. فإذا كانت كثير عادات الطعام تبدو غريبة لمن لم يألّفها، فإنّ طقوسهم في الحمامات من التصرفات الغريبة والشاذة التي يمجها طبع الإنسان، وان تباينت الظروف والبيئة.

كان الزواج من العادات الاجتماعية والدينية، التي ارتبطت بما تواضع عليه المجتمع. فتحديد مبلغ المهر وما يتبعه من عطايا الزوج لزوجته، يبين لنا مدى غلاء المهور، وما تفرضه الأعراف من شروط. تضمنت المقامة في هذا الصدد ما هو نصه: «الحمد لله تزوج على بركة الله المكرم الشاب عبد الرزاق بن الحاج محمد بن حمادوش، مخطوبته فاطمة بنت عمه المكرم الحاج أحمد الدباغ، على صداق مبارك قدره قفطان واحد وثلاثة قناطير صوف» (حمادوش، لسان المقال، صفحة ٢٤١).

حملت مقامات ابن حمادوش في الآن ذاته جملة من التساؤلات النقدية. أراد من خلالها تمرير رسالة توجيه إلى المتلقي للبحث عن المعاني المضمرّة، غير المصرح بها، والمبثوثة في مقاماته. فكثيرا ما قاد الفقر هذه الآفة الاجتماعية التي نخرت مجتمعه إلى انتشار الجريمة بمختلف أشكالها. كما أبرزت شخصياته تلك التوترات الناجمة عن الصراع الطبقي. الذي أظهر السلطة السياسية الفاسدة وهي تتلاعب بالعدالة، وتخرق القوانين، التي لا تراعيها ولا تحترمها إلا في تعاملها مع الطبقات الدنيا والفقيرة، بما يزيد من تأزّم وضعيتها.

تجلى في المقامة نسق مضمّر يكمن في دور الدين في تشكيل وعي المجتمع. والذي حرصت الشخصيات الدينية على اتخاذه وسيلة للتوجيه الاجتماعي والسياسي. وإشعار الفرد بالاطمئنان الداخلي والراحة النفسية. وظف ابن حمادوش الرمز لتمرير خطابه الضمنية، والتعبير عن عمق قضايا المجتمع. فطموح الفرد في كسر القيود التي تكبله كان رمزا لرفض واقع اجتماعي وسياسي مرتبك وفاسد، حلما بالتغيير وتحقيق المساواة بين أطراف المجتمع. فالنص المقامي وسيلة أدبية تتخطى سرد أحداث قصصية للمتعة والتسلية، بل هو لون من التبرّم بالواقع، ورفض لاستمراره. بيد أن إدراك هذه الأبعاد لن يتأتى إلا بالقراءة الفاحصة والحصيفة، وعلى التأويل وقراءة ما بين السطور في النص.

حرص ابن حمادوش على حفظ بعض العادات الدينية الإيجابية، التي درج المسلمون في الجزائر على ممارستها والتقيّد بها، تعلّق الأمر بختم صحيح البخاري قبل كلّ صلاة، وهو ما يعكس نسقا دينيا تمثل في تمسك المسلمين بدينهم، وبمصادر التشريع فيه.

كما نقل لنا طريقة احتفال الناس بليلة القدر المباركة، فمن «عادة متولي الجامع الكبير يفرغ قنطارا أو أكثر شمعا يفرقه على ثلاثين شمعة خضر مابين الثلاثة أرتال إلى الأربعة في كل وحدة، ويأتون بهم إلى دار المفتي أو الوكيل أيهم يجب الظهور. فإذا صلى العصر أخرج ذلك المؤذنون أو غيرهم ... فإذا قرب الفجر أوتروا وقرأوا ما تيسر من الفواتح، ثم أعلموا الناس بالفجر» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ١٢٥، ١٢٦). كان القراء يحملون هذه الشموع إلى دار المفتي ويجوبون بها الشوارع ترسيخا لها كعادة يريدون تعميمها.

ضمن مقارنته بما رآه بالمغرب يقول: «وفي ذهائي له لقيت الطبايين، والعياطين، وآلات الطرب كلّها في السوق ذاهبين بأربعة قبات من شمع، كل واحدة من لون. أحداها خضراء، وأخرى بيضاء، وأخرى حمراء، والرابعة نسيت لونها. أخف مما يجعل في الجزائر عندنا» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ٨٤). إذا كان الاحتفاء بليلة القدر قد تشابه بين البلدين، فإن الطقوس كانت أضخم في الجزائر، مع ارتباطها بتعالى الأصوات وآلات الطرب في المغرب. وبشكل ضمني يومئ ابن حمادوش إلى ضرورة هجر تلك الممارسات البعيدة عن الدين من خلال توظيفه لـ (الطبايين، والعياطين).

عملت المقامة على نقد التّخفي تحت غطاء الدين وتبرير أفكار وممارسات غريبة عن ثقافة المجتمع، في دعوة ضمنية للتمسك بعُرى الدين وأصوله السليمة.

في سياق متصل تنتقد المقامة الفساد الأخلاقي، والسلوكات الدخيلة على المجتمع الجزائري المحافظ، المعتر بأصوله الإسلامية «كان العلماء في زماننا كالتجوم في السماء، يهتدي بهم الناس في أمور دينهم وديناهم. لكنّ للأسف أصبح بعضهم يتاجر بعلمه، ويبيع دينه لأجل المال» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ٧٨)، فقد كان بعض رجال الدين لا يتحرّجون من الإفتاء بغير علم، بما يضلّل الناس ويبعدهم عن مقاصد الشريعة.

عبّرت المقامات عن التحديات التي واجهها المجتمع في التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، من خلال استعراضها للصراع بين التمسك بالتقاليد الدينية والتوجه نحو الحداثة والتغيير.

نقل لنا ابن حمادوش حديثا دار بينه وبين الشيخ الورززي، بعد أن قال هذا الأخير بفضل الملائكة على الإنس: «فقلت: أي مذهب تتبع؟ قال: أنا لا أقلّد أحدا. فقلت: فلم تدرس سيدي خليل؟ قال لي: أما في الفروع فأقلّد مالكا، وأما في الأصول فلا. فقلت: فما يقال فيك؟ قال: أنا رجل محمدي. فقلت: ومن يُبلّغك الكتاب إن لم تقتف آثار هؤلاء؟ ثم انصرفت عنه، فلم أعد إلى مجلسه أصلا. نسأل الله أن يهدينا ويهديه إلى الحق والسلام» (حمادوش،

لسان المقال ، صفحة ٦٧). عكس هذا الموقف تبرُّم الكاتب ببعض ممارسات رجال الدين، وإصرار بعضهم على التمسك بالخطأ وهم في مركز ديني يُفترض أن يكونوا فيه القدوة، والناصح والمعلّم لأصول الدين. حاول ابن حمادوش من خلال ذلك الوقوف على التباين الحاصل بين التدين الشكلي والتدين الحق، في دعوة إلى تمسك الناس بدينهم والتعمُّق فيه، والعمل بما أثر عن السلف الصالح، وطرح كل بدعة تفسد على المرء دينه وآخرته.

٣- الأنساق السياسية:

تناولت المقامة موضوع علاقة السلطة والحكم بالريعية، من خلال ما كان يعيشه الفرد من ظلم الحكام وتسلبهم على رقاب الناس. سعى ابن حمادوش لبيان كيف تُحوّل السلطة لأداة للظلم وإذلالهم.

تضمنت المقامة نسقا سياسيا تمثل في النزاع الداخلي، والصراع على السلطة، فقد صادف وجود ابن حمادوش بالمغرب قيام ثورة بين حاكم تطوان أحمد الريفي، والسلطان مولاي عبد الله. فعمل على توثيق ذلك في مقاماته قائلا: «إنهم أنسوا الفتنة والهرج، ونحن قريب من المرح، وقع قتال بين العسكرين وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي، كثر ماله وتجرّب في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس، كأثما سنة، ثم تجرّبه أراد أن يدعي السلطة لنفسه» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ٨٣). ويقول في موضع آخر: «وكان أشد يوم علي وعلى أصحابي بفاس الجديد دخلناها لما كثر الهرج فسلمنا والحمد لله... بعد أن اختطف لبعض أصحابنا عمائمهم وردت إليهم... كأننا كنا بشعر من تغور الخوف» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ١٢٥). تسبب الصراع على السلطة في تردّد أمني، فشح الخوف بين الناس، ما نتج عنه كساد التجارة ومعها كل أسباب الحياة.

تضمنت المقامة أيضا حديثا عن واحدة من صور الظلم والفساد السياسي، الناتج عن الصراع على السلطة، تجسد في كثرة الضرائب المسلطة على الناس، ما زاد في تأزم وضعهم الاجتماعي «كانت أول نقطة في المغرب تطوان... ومن هنا بدأ يسجل ملاحظاته على القطر، ابتداء من عادة المكس بتطوان نفسها» (قينة، ١٩٩٥، صفحة ٩٩، ١٠٠)؛ حيث كانوا «يأخذون خمسة لكل مائة مكسا، وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال والقواني» (حمادوش، لسان المقال ، صفحة ٣١، ٣٢). لم تكف الضرائب والمكوس -التي أحتت ظهور الرعية- للتعبير عن أشكال النهب والفساد السائد، ليضاف إليها رشوة مستحقة تدفع في يد العمال. تلك أنساق سياسية تصور الهوة بين الحاكم والمحكوم، الذي لا يهتم إلا بمصلحته والحفاظ على كرسيه، والانتفاع بالامتيازات وأموال الشعب.

تضمّن الحديث عن الآخر النصراني وكذلك اليهودي بشكل موجز وخاطف في المقامة نسقا سياسيا، تمثل في العدائية ضد الجزائريين بشكل خاص. فقد رفض النصارى افتداء بعض الجزائريين؛ حيث «جاء أوراق من بر النصارى وأهم لا يريدون فداء المسلمين وخصوصا الحاج موسى ونظرائه من الرؤساء المشتهر أمرهم. فغضب أميرنا

إبراهيم باشا صانه الله، وحلف أن لا تبقى كنيستهم في الجزائر. وكانت لهم كنيسة عظيمة» (حمدوش، لسان المقال ، صفحة ١٠٧)، فرغم روح التسامح عند الجزائريين، وحفاظهم على المقدسات الدينية النصرانية في بلادهم، إلا أن الآخر أبان عن تجدر الكره والعدائية فيه.

٤- الأنساق الأدبية:

عكست المقامات تميز أسلوب صاحبها، فقد ظهر تحكمه في عنان اللغة، فجاءت فصيحة لا يشوها لحن أو إسفاف. روى في واحدة من مقاماته: «أقبلت إلى المدينة، فاستقبلني أهلها بالترحاب. وترينت الشوارع بالأنوار، وكأنَّ السماء قد أضاءت بنجومها» (حمدوش، لسان المقال ، صفحة ١١٢). تميزت لغة المقامة بأسلوب راق عكس المستوى التعليمي والثقافي للمجتمع الجزائري في تلك الفترة.

استعمل ابن حمادوش العامية في أجزاء من مقاماته، للتعبير بلسان شخصيات. ملائما بين النص والحقيقة الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي تنتمي إليه. من ذلك حديث عن وفاة صاحبه يقول فيه: «وصلت عليه غماما، مع الجماعة كلهم بعد صلاة العشاء. ونزل معه مغسّل وآخرون من النصاري في الفلوكة، إلى أن بعدوا عتّا وربطوا معهم شكاراة من رمل فثقلوه بها، وألقوه في البحر وأتوا» (حمدوش، لسان المقال ، صفحة ٣١). تميزت مقاماته بأسلوب بلاغي، وظفت فيه الاستعارات والتشبيهات بشكل مناسب، ما منح النص جمالية وتميّزا. اعتمدت نصوصه على عنصر الحكيم، متناولة مواضيع طريفة، وظف فيه الرمز تورية للمعاني التي لم يرد التصريح بها. شاع السجع في مقامات ابن حمادوش على غرار مقامات المشرق، كما حرص أن يختم كلّ مقامة بأبيات شعرية مزاجا بين النثر والشعر، ما زاد نصه رونقا وجمالا.

كشفت المقامة عن نسق علمي تحلى في البعثات العلمية التي كانت بين علماء الجزائر والمغرب. فقد زار ابن حمدوش خلالها تطوان ومكناس وفاس ، ونهل من علم خيرة علمائها؛ كالورززي، والبناني والسرايري، في تطوان، وابن المبارك وغيره في فاس. يظهر من ذلك الإقبال على طلب العلم، والرغبة في الاستزادة منه، ليس بالجزائر فحسب، بل فيما جاورها من بلدان عربية.

جعل ابن حمادوش الأدب وسيلة لمحاربة الفساد الاجتماعي والديني في بلده، موظفا لغة مباشرة حيناً، ومشفرة أحيان كثيرة، حُبلى بالدلالات المناوئة لتلك الأنساق السلبية، في مقامة رمزية بامتياز. شبه ابن حمادوش المجتمع الجزائري بالحديقة الغناء، قائلا: «مجتمعنا كحديقة، إذا سقيت بالماء الصافي، نمت الزهور وأثمرت الأشجار. لكن إذا سقيت بالسموم، ذبلت الأوراق وماتت الأزهار» (حمدوش، لسان المقال، صفحة ١٥٦)، فهي دعوة لحماية بلادنا، بالحفاظ على قيم مجتمعنا وعاداتنا العربية الإسلامية حماية لهويتنا من أي مسخ، أو فساد.

كما عبر استخدامه للغة (الفصحى/العامية) عن هوية الكاتب وانتمائه الثقافي والحضاري، بوصف اللغة أداة للتعبير عن هوية الأمة الجزائرية. لم تخلو لغة الكاتب من معاني خفية أثر السكوت عنها والإشارة إليها رمزا، اقتناعا منه بوعي المتلقي وذكائه في إدراك المعاني المشفرة. تشجيعا له على التأمل وقراءة ما بين السطور.

VIII- خاتمة: خلاص البحث إلى النتائج التالية:

- بعد استعراض الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة في مقامات ابن حمدوش الجزائري، يتضح أن هذا العمل الأدبي يعكس واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني، ويبرز التفاعلات الاجتماعية، الدينية، واللغوية التي كانت سائدة آنذاك.

- جاءت مقامات بن حمدوش أشبه بالرحلة التي سجل فيها صاحبها كل مشاهداته، فكانت أقرب إلى المذكرات الشخصية، فهي لم تقم على الكدية كما ألفناه في المقامات الأخرى.

- أبرزت المقامة العديد من الأنساق الاجتماعية، تمثلت في جملة العادات والتقاليد مثل: الأعراس، المآتم، الاحتفال بالمولد النبوي... ما يعرف بثقافة المجتمع الجزائري، ويدفع أبناءها للتمسك بها.

- أظهرت المقامات صراعا بين قيم الماضي وقيم الحداثة، ما جعل المجتمع أمام تحديات المسخ عن تقاليده وثقافته.

- قدمت المقامات نقدا اجتماعيا وسياسيا للأوضاع السائدة، وعيا منها بضرورة التغيير، والتطلع لحياة أفضل.

- حملت المقامة دعوة للتمسك بأصول الدين، من خلال عرضه لمجموعة من الممارسات، التي تمثل جزءا من حياة الفرد في المجتمع الجزائري. دون أن تغفل التنبيه إلى ضرورة التعمق في فهم الدين والتمييز بين الدين الشكلي والتدين الحق.

- افتتحت مقامات ابن حمدوش بالحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. غلب عليها الصور البيانية، وطغى عليها السجع كما هو الحال في المقامات المشرقية، اختتمت كلها بأبيات شعرية.

- شجعت المقامة على العلم والمعرفة من خلال إبراز دور العلم في الارتقاء الاجتماعي أبرزت المقامة قيمة العلم والمعرفة

- أظهرت المقامة ما عاشه المجتمع من زحف ثقافة الآخر الأوروبي/النصراني بثقافته، وأنساقه الغريبة عن المجتمع الجزائري من جهة. ومحاولات العثمانيين للتغيير ببسط ثقافتهم وإشاعتها بين الناس بحكم توليهم زمام الحكم في بلادنا وما نتج عنه تسلل لثقافتهم الوافدة.

IX- التوصيات:

- ضرورة وجود المزيد من الدراسات النقدية التي تتناول مقامات ابن حمدوش من زوايا مختلفة، مثل المنهج النفسي أو المنهج التاريخي، لفهم أعمق لأبعاد هذه الأعمال.
- تشجيع الباحثين على استكشاف الأنساق المضمرة في الأدب الجزائري الكلاسيكي، للكشف عن الرسائل والرموز التي قد تكون خفية على القارئ المعاصر.

X- قائمة المصادر والمراجع:

- ١- آرتر أيزابجر. (٢٠٠٣). النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر وفاء إبراهيم ورمضان بسطويسي، ط ١، المشروع الوطني للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- ٢- عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري. (١٩٨٣). لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح أبو القاسم سعد الله، د ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ج ٢.
- ٣- الزمخشري . (١٩٨٢). مقامات الزمخشري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- ٤- سايمون ديورنغ . (٢٠١٥). الدراسات الثقافية مقدمة نقدية، تر ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- ٥- عبد السلام عبد الحكيم العبد. (١٩٨٩). الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث، د ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- ٦- سمير خليل. (٢٠١٢). النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، ط ١، دار الجوهر، بغداد، العراق.
- ٧- عباس حسن . (١٩٧٦). فن المقامات في القرن السادس، دار المعارف، القاهرة.
- ٨- عمر بن قينة . (١٩٩٥). في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- ٩- عبد الله الغدامي . (٢٠٠٥). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط ٣، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية.
- ١٠- فاروق مصطفى إسماعيل . (١٩٨٠). (الأنثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر.
- ١١- عبد الفتاح كليطو . (٢٠٠١). المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر الكبير الشرفاوي، ط ٢، دار توبقال للنشر، المغرب.
- ١٢- فكتور الكك . (١٩٦١). بديعات الزمان، د ط، المطبعة الكاثوليكية، بيروت لبنان.
- ١٣- أبو القاسم سعد الله. (٢٠٠٧). تاريخ الجزائر الثقافي (١٥٠٠-١٨٣٠)، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، ج ١.

- ١٣- قصي عدنان سعيد الحسيني (١٩٩٩). فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن.
- ١٥- كامل المهندس وآخرون. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ساحة الصلح، مكتبة لبنان، بيروت.
- ١٦- كليفورد غيرتر. (٢٠٠٩). تأويل الثقافات، تر محمد بدوي، ط ١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان.
- ١٧- ماجدة حمود. (٢٠١٠). صورة الآخر في التراث العربي، ط ١، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان.
- ١٨- محمد جميل سلطان. (١٩٤٣). فن القصة والمقامة، منشورات جمعية التمرن الإسلامي، مطبعة الترقى، دمشق سوريا.
- ١٩- ابن منظور. (د ت). لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان، ج ١٢.